الطغيان في العراق القديم
بين الديمقراطية البدائية ونظرية التفويض الإلهي

أ.م . د خالد موسى عبد

المقدمة

إن أي نظام سياسي يجد له مقومات لنهوضه فأن هذه المقومات لابد لها أن ترتبط مع ما يتماشى وطبيعة المجتمع وأساسياته.

والمجتمع العراقي القديم واحد من المجتمعات التي عاشت في صراع مع الطبيعة من أجل البقاء وإيجاد سبل العيش ونتيجة لذلك عاش الإنسان في خوف وتردد لاعتقاده أن هناك قوى خفية مسيطرة على الكون لا بد له من إيجاد سبيل لإرضائها فتجسد هذا الإرضاء بأن جعل لكل ظاهرة طبيعة إلها يعبده ويرضخ لأمره ويتحاشى غضبه ويفعل أي شيء تلبية لأمره[١].

من هذا المنطلق وظفت هذه الفكرة لتتدرج ضمن أولويات العمل لإنشاء المنظومة السياسية في العراق القديم فجاءت نظرية التفويض الإلهي لتضع أطرا للعمل السياسي على اعتبار أن السلطة السياسية هي سلطة إلهية مقدسة أزلية فكل ما يصدر منها من أحكام هي أحكام شرعية مُلزمة التنفيذ وعلى وفق ذلك كان اختيار الملك ليكون ممثلا وراعيا للآلهة في الأرض[٢]، وبهذا أعطت هذه النظرية ترسيخاً عملياً لظهور الطغيان واستبداد الملوك على أساس أن نظامهم مقرون بالآلهة وإرادتها فكل أفعالهم مبررة بل يضفى عليها طابع التقديس ، وهذا بطبيعة الحال يتناقض مع ما قدمه بعض الباحثين على أن بدايات النظام السياسي في العراق القديم كان أقرب ما يكون إلى الديمقراطية مستندين إلى بعض النصوص الملحمية التي تشير إلى وجود مجالس محلية كان لها أثر في القرار السياسي[٣].

من هنا جاءت فرضية البحث لتوضح فكرة الطغيان في العراق القديم وكيف ترسخ ضمن اطار ديني وما نتج عنه من استبداد تحت هذا الغطاء موضحين أن السلطة السياسية وجدت مع وجود المدينة وتعمل وفق منظور ديني محكم لا يمكن التجاوز عليه أو اختراقه وأتبعنا منهجا يقوم على العرض والتحليل لتأكيد فرضية البحث.



الطغيان في اللغة والاصطلاح

الطغيان في اللغة هو الغلوّ وكل شيء يجاوز القدرة فقد طغى ، يقال طغى ماء البحر : أرتفع وعلا على كل شيء فأخترقه[٤]، (طغى) يطغى طغياً ويطغو طغياناً : جاوز القدر وارتفع وغلا في الكفر وأسرف في المعاصي والظلم[٥].

فمعنى الطغيان لغة هو ((مجاوزة الحد أو القدر المعلوم)) ، أما ما ذكره اللغويون من أنه مجاوزة الحد في العصيان أو الظلم والمعاصي أو الغلوّ في الكفر فإنما هو حسب الاستعمال القرآني للمفردة وما جاء بها من تفسير يخص الطغاة وأفعالهم[٦].

والطاغية والطاغوت مشتقان من طغي وجمع الطاغوت طواغيت أو طواغيَ ، والطاغي هو الظالم المسرف في الظلم وهو الجبار العنيد الذي لا يبالي ما أتى[٧].

والطاغية يفرط على شعبه وعلى من حوله((إن الإنسان ليطغى)) [٨] أي أنه يستغني عن الآخرين حتى يضل عن الصواب[٩].

وقد أشار القرآن الكريم إلى الفتنة كأبرز ظاهرة اجتماعية تهدد المجتمع بالفوضى حين تغيب الرؤية ويتنازع على الحق فتمتد المخاطر إلى المجتمع برمته ، قال تعالى ((واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا إن الله شديد العقاب)) [١٠].

ولكن القرآن الكريم إذ يستنكر الفتنة لا يجعلها مبرراً لتكريس الطغيان وأن شرع القوة في مواجهتها ، فالهدف هو حاكمية الدين لا الطاغوت ، لذا كانت منظومة الطغيان أكثر تناولاً عبر آيات الذكر الحكيم لأن الطغيان قد يكون من الفرد ويكون أحيانا من الأمة[١١].

وقد عرف الطغيان من المنظور السياسي على أنه ((نظام الحكم الذي يتسم بتركيز شديد للسلطة في يد فرد واحد (أو تنظيم واحد) يمتلك سلطات غير محدودة ويتسيد سياسياً على كل المحكومين ، ويمارس الحكم بصورة تحكمية قهرية فلا يعترف بالحرية السياسية أو القانون)) [١٢].

وارتبط هذا المعنى مع ما جاء في معاجم اللغة من التسلط والتفرد بالرأي وجعل قوته هي القوة المطلقة التي لايمكن لأحد التجاوز عليها أو خرقها لأنه هو القانون.

وقد وردت ألفاظ عدة ذات صلة بالطغيان (الإسراف ، العلو ، الاستكبار ، التجبر ، العتو ، الظلم) كل هذه الألفاظ تظهر شخصية الطاغية وتتوافق معه من حيث التسلط وقيادة الناس برؤيا يعتبرها الطاغية هي الأصح من أجل أن يدوم حكمه وينفرد بالسلطة[١٣].



الطغيان الشرقي

لقد ظهر مفهوم الطغيان لاسيما مصطلح (الطغيان الشرقي) من ضمن المفاهيم التي تناولها الفلاسفة والمفكرون الغرب من أجل تبريرهم لشرعنة الحكم في الشرق وعدوّه نوع من الاستبداد والتسلط بعكس الحكم الديمقراطي الذي تكون فيه شخصية الحاكم محدودة بوظيفة سياسية بحسب الممارسة الديمقراطية إلا أن الحاكم الشرقي لا تحده ممارسة بل يجوز له ما لا يجوز لغيره[١٤].

والطغيان كممارسة سياسية هو الاستبداد وذلك بسلب الحكم الصالح من أهله وتجاوزالقانون الذي يرعى الصالح العام ، إذ ليس هناك من حد قانوني للطاغية فهو يسخر كل شيء لإرادته ورغباته[١٥]، وهذا ماتنبه اليه افلاطون (٤٢٧-٣٤٧ق.م) بقوله إن حكم الفرد الواحد يتفرع إلى ((ملكية)) خاضعة للقانون و ((طغيان)) تعسفي بشكل بحت[١٦].

ومعنى الاستبداد هو حرمان الناس من ممارسة حقوقهم الطبيعية كأحرار فالطاغية يفرض نفسه على الناس باغتصاب الحكم كرها ، أو ان الناس هم الذين يضعونه لأنهم ألفوا حياة الاستبعاد جيلا بعد جيل ، فلم يعودوا قادرين على تحمل مسؤولية الحرية فيركنون إلى الذل تحت سطوة المستبد وهو الإفراط بلغة أفلاطون ، ويشبه أفلاطون الطاغية بالذئب لأنه يذوق بلسانه دم أهله[١٧].

والطغيان حسب تعريف أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ق.م) هو صورة للحكم الفردي في ممارسة السلطة دون رقيب ولا حسيب ، وهو بذلك يسوغ لنفسه صفة من صفات الألهة ((لايُسأل عما يفعل)) [١٨].

ونظر أرسطو إلى الطغيان الشرقي إلى أنه معاملة السيد لعبيده حيث نجد لدى الشعوب الأسيوية على خلاف الشعوب الأوربية طبيعة العبيد وهي لهذا تتحمل حكم الطغيان بغير شكوى وتذمر[١٩].

وسار على هذا النهج الفلاسفة المحدثون[٢٠] بحيث نظروا إلى الحاكم الشرقي وكأنه رمز الاستبداد والسيطرة على رقاب الناس لاغين دور الشعب بشكل تام ومن هنا نلاحظ ظهور الطابع العنصري الطاغي في ذلك العرض لكونهم حكمواعلى هذه الظاهرة بشكل عام دون تحليل أو تميز.

لقد ربط احد المفكرين بين ظهور الطاغية والأعمال الإروائية والزراعية التي كانت هي أساس اقتصاديات الشرق ولاسيما العراق القديم حيث ذكر أن تلك الأعمال الهائلة التي تقوم بها هذه الشعوب لأغراض الري ووسائل الانتقال والمواصلات هي التي أعطت الأسس لقيام تلك الظاهرة[٢١] مستخلصا أن الدولة الاستبدادية تقوم على ثلاث مهام جوهرية لتحقيق الإنتاج الزراعي وهي :-



١- مهمة توصيل المياه من النهر إلى الأرض.

٢- مهمة حماية الأرض الزراعية من غوائل الفيضان.

٣- مهمة توفير مياه الري في فترات التماريق(٢٢).

هذه المهام لا يمكن تحقيقها من قبل الأفراد فلابد من وجود دولة قوية تقوم بتنظيمها، بمعنى أن الطغيان كان ضرورة ملحة في البلدان التي تعتمد على الزراعة والتي يجاب إلى أعمال كبيرة لا يستطيع أن يقوم بها الأفراد ، ولهذا أدت تلك الظروف مجتمعة إلى ظهور الدولة القوية بما تعتمده من وسائل القهر المادي والمعنوي لتخضع الناس إلى الطاعة قسراً نتيجة حاجة الناس إلى الأمان والاستقرار(٢٣).

وهذا ما ذهب إليه هنري فرانكفورت بقوله (في حالة الطوارئ عندما كانت الحاجة تدعو إلى قرار سريع أو عمل في غاية الخطورة كانت المدينة في مابين النهرين كالجمهورية الرومانية ، تضع نفسها في يدي دكتاتور ، وفي سومر كان هذا الحاكم يسمى (لوكال) أي الرجل العظيم وتترجم عادة (الملك) ...) (٢٤) فأن هذا الملك طيلة الفترة التي يواجه بها الحالة الطارئة كان محكوما بالمصدر الذي استمد منه سلطته التي كانت تعد دائما سلطة مؤقتة وغير شخصية لا تمارس إلا أثناء الأزمات ، ولكن سلطة الملك هذه سرعان ما تحولت إلى سلطة دائمية وثابتة وكان ذلك إيذانا بقيام مرحلة جديدة في تاريخ العراق القديم إلا وهي مرحلة السلطة السياسية المطلقة التي استمدت عنوانها وهيبتها من السلطة الألهية التي أدعت على إنها أوكلتها أو فوضتها لإدارة شؤون البلاد(٢٥) وبذلك المعنى كرست نظرية الطغيان فقد اكسبها صفة شرعية لا يمكن التجاوز عليها أو اعادة النظر بها ومن هذا المنطلق جاءت العملية في صالح الملك فكل أفعاله مبررة لأنه يحكم بأمر الأله.

ومن الجدير بالذكر أن هذه المرحلة المهمة في تاريخ العراق القديم قد سبقتها مرحلة ظهرت في المدينة السومرية أسماها الباحثون مرحلة الديمقراطية البدائية كإشارة منهم إلى وجود نظام ديمقراطي كانت عليه المدينة السومرية مستندين إلى بعض النصوص التي ذكرت أحداثاً معينة كان قرارها مصدر جماعي ، فأن الديمقراطية البدائية بتسميتها هذه كانت قائمة في الجوهر على جهاز شعبي يتمثل في مجلسين، مجلس يضم كل الناس الأحرار (المجلس العام) إلى جانب آخر كانت سلطته تنصرف إلى معالجة الأمور اليومية ويضم مجموعة من الشيوخ (مجلس الكبار) (٢٦).

وساق الباحثون عدداً من الأدلة التي تؤكد دور هذين المجلسين في العملية السياسية ولاسيما حالة الصراع بين كلكامش (حاكم اوروك) و أكا (حاكم كيش) وما دار بينهما من نزاع وتخاصم بشأن الأرض والمياه وقد دعى ذلك كلكامش إلى عرض هذا الموضوع على المجلسين فطلب منه مجلس



الشيوخ التريث في ذلك أما المجلس العام فأيده على خوض الحرب وقد مال كلكامش إلى الطرف الثاني وحشد الناس لخوض تلك المعركة(٢٧).

ومن سياق النص نلاحظ ان العملية ذات طابع ديمقراطي لا يمكن تجاهله ولكن إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار العمل الذي تطلب من كلكامش دعوة المجلسين ألا وهو الحرب فهذا أمر طبيعي لأن المعركة لا يخوضها إلا أهل المدينة ولا يوجد تنظيم عسكري أو جيش له خصوصية في المدينة السومرية فلا بد لكلكامش أن يذعن إلى أراء تلك المجالس لأنه لا يستطيع وحده محاربة (كيش).

الشيء الأخر الذي دعا الباحثين إلى السير وفق هذه النظرية ما ذكر في ملحمة كلكامش حينما عزم الأخير على مصارعة (خمبابا) حارس غابة الأرز وقبل أن يقدم على عمله هذا استشار مجلس الشيوخ وخاطبهم في الأمر ولكن المجلس رفض طلبه ولم يستجب إليه على أساس أنه مازال شاباً ولا يعرف عاقبة ما يقدم عليه.

ولكن كلكامش لم يذعن إلى ما قاله المجلس ونفذ إرادته دون المبالاة إلى ما قدموه من نصح له في ذلك وبعدها يقر المجلس بالأمر الواقع ويدعو له بأن ينصره الأله الحامي(٢٨).

سياق النص واضح جداً بأن كلكامش قرر الخروج من أوروك لقضية ما وقد لا يرجع فمن المستحسن أن يوكل أمر البلاد إلى هذا المجلس ولم يعين شخصاً آخر بعده حتى يسمح له بالعودة مرة ثانية وممارسة كل حقوقه كملك.

ما ذكره الباحثون فيما يخص العملية السياسية في العراق القديم لاسيما فيما يتعلق باختيار قائد وقت الأزمات وما يطلق عليها الديمقراطية البدائية فأن ذلك يتناقض مع ما جاء في النصوص التي تذكر أن الملوكية هي موجودة منذ الأزل مع وجود الألهة وأنها هبطت من السماء قبل الطوفان في مدينة أريدو ثم صعدت إلى السماء بعد أن حل الطوفان في الأرض وعادت مرة أخرى إلى مدينة كيش مع نهاية الطوفان ، ونزلت معها كذلك شارات الملوكية حيث كانت عند دكة عرش الاله (أنو) وهي التاج والصولجان والعصا الملكية والخيط وأدوات القياس(٢٩).

وتختار الآلهة من ينوب عنها على الأرض من الأشخاص الجديرين بحمل الملكية وأعبائها فعند ذلك يستحق أن يطلق عليه لقب ملك فهو نائب عن الأله ومسؤول أمامه(٣٠).

وبذلك نلاحظ أن مسألة وجود الملك واختياره كانت موجودةً منذ أن وجدت المدينة فلا أساس للعملية الديمقراطية أو الاختيار وأن وجدت فليس لها دور وإنما هي كانت انعكاساً لما يدور في مجلس الآلهة(٣١) فلم يكن لها من القوة والتنفيذ سوى مسميات فأن اختيار الملك مرتبط ارتباطاً وثيقاً بعملية



مقدسة حتى يكسب من خلالها القوة والنفوذ والسيطرة ومصادرة حق الآخر وهذا ما لمسناه بشخصية ملك اوروك (كلكامش) فما فعله بأهل مدينته ما هو إلا تأكيد لمنزلته المقدسة

((لم يترك كلكامش ابناً طليقاً لأبيه
ولم تنقطع مظالمه عن الناس ليل نهار...
لم يترك كلكامش عذراء طليقة لأمها
ولا ابنة المقاتل ولا خطيبة البطل...)) (٣٢)

هذه حالة واضحة لممارسة الطغيان والانفراد بالحكم دون أن يأخذ بأي رأي ولم يراعي حق شعبه وإنما كان هدفه الأول هو شخصه دون غيره وتستمر الملحمة بذكر هذا الفعل وتشير إلى إن الشعب ليس له سلطة على الملك ولا يستطيع أن يجد له البديل حيث إن الآلهة خلقته وأعطته تلك القوة فهي الوحيدة التي تستطيع أن تزيله فقد وضعت الشعب موضع الضعيف حتى توسلوا إلى الآلهة كي تنقذهم من طغيان هذا الملك

((وأخيرا سمع الألهة ندبهم وشكواهم
فاستدعى ألهة السماء رب (اوروك) وقالوا له
اله الخلق (ارورو) هذا الثور الوحش الجبار؟
الذي لا يضاهي فتك أسلحته سلاح آخر
والذي تستيقظ رغبته على ضربات الطبل
كلكامش الذي لم يترك ابنا طليقا لأبيه
ومافتئ يضطهد (يكدر) الناس بمظالمه ليل نهار...
يا (ارورو) انت التي خلقت هذا الرجل
فأخلقي الأن غريما له يصارعه في اللب والعزم
وليكونا في صراع مستديم لتنال (اوروك) السلام والراحة)) (٣٣).



فاستجابت الألهة لذلك الطلب وخلقت له من يصارعه وهو انكيدو

((سأصرخ من قلب (اوروك) أنا الأقوى

أجل أنا الذي سابدل المصائر

انا الذي ولد في الصحراء هو الأشد والأقوى)) (٣٤)

وبعد أن التقيا كلكامش وأنكيدو دار بينهما صراع كبير وظلا يتصارعا كالثورين الوحشيين وحينما انثنى كلكامش وقدمه ثابتة في الأرض (ليدفع انكيدو) واستدار ليمضي هدأت سورة غضبه ولما هدأ غضبه كلمه أنكيدو وقال له : ((انك الرجل الأوحد ، أنت الذي ولدتك أمك (انسونا) البقرة الوحشية المقدسة ورفع (انليل) رأسك عاليا على الناس وقدر إليك الملوكية على البشر)) (٣٥).

أن غضب الناس دعى الألهة لاستجابة طلبهم التي ترى فعل الرعوي السياسي مقترنا بفعل الألهة وأنه الوسيط بين السماء والأرض ، لهذا جاءت استجابة الألهة بشكل غير مباشر من خلال خلق منافس له هو انكيدو فأن الملحمة تعكس نوعين من المشاعر الأول مشاعر الرهبة التي يثيرها الرعوي السياسي الحامي،اذا اخذنا بنظر الاعتبار جبروت هذا الرعوي الذي لايمكن التصدي له إلا بالشكوى إلى الالهة وهو يثير الريبة والخوف ويعطي انطباعاً لديهم بفقدان جدوى المفهوم الاجتماعي نفسه ونهاية للقواعد والاختلافات التي تميز الأنظمة الثقافية(٣٦).

أما النوع الأخر فهي مشاعر المحبة فأن الأزمة التي قامت بفعل تقدير مسبق من السماء والتي حاولت إصلاح الأمر بإدخال (انكيدو) جعل من كلكامش محبوبا لدى أهل اوروك ((أن منتهك القانون يتحول إلى مصلح للقانون بل مؤسس له بعد أن كان قد خرقه في عجلة بعض الشيء والمجرم شديد الأجرام يصبح من أحد أعمدة النظام الاجتماعي))(٣٧).

كل هذا التضمين الذي ساقته الملحمة لم تضع في اعتباراتها اي شيء يخص الجانب الفعلي والتطبيق العملي لما ذكره الباحثون من تلك المجالس الديمقراطية فما هي إلا نتاج صوري غير واقعي فهي تحكم ولا تسود.

ومن خلال تتبع تلك النصوص نجد أن الشعب ليس له إرادة في تقدير مصيره وإنما كان كل ذلك مرتبط ارتباط وثيق بالإلهة فهي التي تثبت وتزيل فأين اختيار الشعب في ذلك؟ هذا هو الترسيخ العملي لفكرة الطغيان لدى ملوك العراق القديم.



الأصل الإلهي للسلطة السياسية

من الأمور الأساسية التي رسخت فكرة الطغيان في العراق القديم هي نظرية التفويض الألهي التي عدت من أساسيات السلطة السياسية حيث جذرت مفهومها في الفكر العراقي القديم وكان يذهب إلى الاعتقاد بأن السلطة السياسية كانت قائمة أصلا في السماء وبالتالي فأن الناس على الأرض لايعرفون منها إلا انعكاسها وأن العاهل ما هو الا التجسيد العيني لهذا الأنعكاس(٣٨).

بهذا المفهوم غلقت كل المنافذ على العراقي بأنه يختار من يمثله من السلطة وأن الآلهة هي التي ترعى ذلك دون البشر على اعتبار أن البشر قاصرون في معرفة من يحمل السر الإلهي الذي يتميز بصفات عدة تجعله مؤهلا لان يكون ملكاً.

وقد اظهرملوك العراق القديم العديد من النصوص التي تبين اخصيتهم في العرش من خلال اختيار الألهة لهم فهذا سرجون الأكدي (٢٣٧١-٢٣١٦ق.م) ((أنا سرجون الملك القوي ، ملك أكاد ، كانت امي من عذارى الهيكل ، لم أعرف ابي ، بينما لبث أخو أبي في الجبل. وفي مدينة أزو بيراني ، على ضفاف الفرات ، حبلت أمي بي ، ولدتني سراً ، ووضعتني في سلة من الأسل وسدت فتحاتها بالجلبان وتركتني للتيار حيث لم أغرق ، وحملني التيار حتى أكي ، غراف الماء. وانتشلني أكي غراف الماء ، الطيب القلب من المياه، ورباني أكي غراف الماء ، وكأنني ابنه، وصرت بستاني أكي غراف الماء. وحين كنت بستانيا ، مال قلب عشتار إلي فأصبحت ملكا وحكمت طوال خمسة وأربعين عاماً))(٣٩).

وتشير مقدمة قانون الملك أور-نمو (٢١١٣-٢٠٩٦ق.م) إلى كيفية تفويض الإلهين (آنو) و (أنليل) ملوكية أور إلى الاله (ننار) إله مدينة (اور) ، ثم اختار هذا الأله (اور-نمو) ليمثله على الأرض في حكم أور(٤٠).

وبنفس السياق نجد في تمجد مقدمة قانون الملك حمورابي (١٧٩٢-١٧٦٣ق.م) من حيث تأسيس مدينة بابل وتعيين الأله مردوخ الهاًعلى المدينة ومن ثم اختيار حمورابي ليكون ملكاً على بابل:



((عندما (قضيا) الإله (انو) المتسامي ملك الأنوناكي

وإله (انليل) سيد السماء والأرض

مقرر مصائر البلاد

قضيا لـ(مردوك) الأبن الأكبر سلالة (أنكي)

(أن يتمتع) بقدسية الأله (أنليل) على كل البشر

وجعلاه عظيما بين الأيكيكي

وسميا (بابل) بأسمها العظيم

وجعلاها المستقيمة في العالم

وثبتا له في وسطها ملوكية أبدية

اسسها ثابتة كالسماء والأرض

آنذاك اسمياني (الألهان) أنو وانليل باسمي حمورابي الأمير

التقي الذي يخشى الألهة)) (٤١).

وفي نص للملك الأشوري سنحاريب (٧٠٤-٦٨١ق.م) نلمس بوضوح دور الألهة في أختياره ولياً للعهد وتنصيبه على العرش ومناصرته منذ أن كان جنيناً في رحم أمه: ((الألهة اعتنت بي وخصتني بعطفها عندما كنت ما أزال صغيراً في رحم امي التي ولدتني وسهرت عليّ ومنحتني رحمة واسعة في فترة وجودي في بطن امي ومنحتني إدراكا قوياً وعدالة السيدة ادايا...))(٤٢).

من ذلك يتبين أن الملك الحقيقي هو اله المدينة وبدوره كان يختار الأمير الذي يمثل الآلهة ،يودع لديه قوته ليكون بالتالي مجرد منفذ لأرادته فكل ما يقوم به الملك من أفعال هي منزلة من قبل الإله وبذلك تكون كل أفعاله تجاه الشعب كانت مبررة ، (الإله الذي أراد ذلك) وأن تصدى احد ما على هذا الحكم فينال غضب الآلهة فتطرده من رحمتها ويكون إنساناً مذموماً، فنجد العراقي لا يتقرب إلى ذلك فما يريده هو أرضاء الآلهة وتجنب سخطها لأنه يقف موقف المتحير إزاء العالم الأخر عالم ما بعد الموت الذي يجهله رغم إن العراقي القديم كان يرى أن الموت أمر مقرر لا يمكن الفرار منه ومع ذلك الاستسلام لم يعف العراقي من الخوف والقلق عندما يواجه الموت لأنه يواجه المجهول،لذا كان يخاف ذلك العالم فيلجأ إلى إرضاء الآلهة عسى أن تكون حياته طيبة وسعيدة في العالم السفلي ويشكل ذلك ركنا من أركان دين العراقي القديم(٤٣).



من جانب ثان ان العراقي كان إنسانا متدينا إلى حد بعيد بل إنه يشعر بالتبعية المطلقة إزاء الآلهة وأن هذه التبعية كانت تنفذ إلى كل مكونات حياته فكان يتعبد ويشيد المعابد ويختار أسماءً له مرتبطا بالآلهة ، ويعتقد أن للسلطة الإلهية حدوداً لا يمكن تجاوزها[٤٤].

هكذا كانت الشخصية العراقية فارتباطها الروحي جعلها ترضخ لذلك الارتباط دون الالتفاف عليه أو الخروج منه فتقبل كل ما أنزل عليها لأنها تعتقد في ذلك أمراً إلهياً لا يمكن تغيره ومن هذا المنطلق جاءت أفعال ملوك العراق القديم بما يحملونه في بعض الأحيان من حكم متسلط ضمن نطاق شرعي قادتهم له نظرية التفويض الإلهي.

الخاتمة

يمثل الدين ركناً أساسياً في حياة الشعوب لا يمكن الاستغناء أو إيجاد البديل عنه فهو عملية روحية تشعر الإنسان بالاستقرار واستمرارية الحياة.

وضمن هذا المفهوم عاشت الشخصية العراقية القديمة بكل ما يحتويه معنى الدين ليس فقط علاقة الشخص بالآلهة وإنما انسحب كذلك على التكوين السياسي الذي اتخذ من هذا السبيل منفذاً لإقرار السلطة السياسية وجعلها سلطة قوية لا يستطيع الفرد التجاوز عليها لأنها محكمة بقانون إلهي مقدس.

فمنذ وجود المدينة وجد التنظيم السياسي في العراق القديم وظهر بشكله الكامل سيما وأن أولويات الحكم كانت جاهزة على اعتبار أن الآلهة هي التي تختار من ينوب عنها في الأرض ،فمنح هذا الأمر للملك سلطة أقوى وأشمل لأنه شخص الإله فكانت كل أفعاله مبررة تحت غطاء شرعي فإنه لا يحاسب لأنه مقدس فكل هذه الهالة جعلته يطغى وتظهر شخصية الملك المستبد ، فلم يكن أمام العراقي بما يحمله من صفة التدين الا أن يذعن إلى الأمر الواقع حتى لا يدخل في صراعات مع الآلهة وبالتالي يعد مذنباً فتنقطع عنه الرحمة فلا يتدخل بشأن الملك لأنه مؤمن أن الآلهة هي التي تثبت وهي التي تزيل فلا يكون أي أمر إلا بإذنها .

هذا الأساس الذي بنيت عليه السلطة السياسية في العراق القديم وليس كما ذكر بعض الباحثين أن هناك عمليات اختيار شعبي للسلطة أو شؤون سياسية تدار من قبل الناس.

فالملك هو السلطة العليا التي لا يمكن قهرها أو تجاوزها لأن الآلهة هي التي أعطته هذا الحق بحسب نظرية التفويض الإلهي.



الهوامش

(١) علي ، فاضل عبد الواحد ، عشتار ومأساة تموز ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٣ ، ص٢١ ؛ باقر ، طه وفاضل عبد الواحد علي وعامر سليمان ، تاريخ العراق القديم ، مطبعة جامعة بغداد ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص١٠ ومابعدها.

(٢) الطعان ، عبد الرضا ، الفكر السياسي في العراق القديم دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨١ ، ص٣٨٦.

(٣) المرجع نفسه ، ص٢٥٣.

(٤) الفراهيدي ، الخليل بن أحمد ، كتاب العين ، تحقيق : مهدي المخزومي وابراهيم السامرائي ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨١ ، ج٤ ، ص٤٣٥.

(٥) الفيروز آبادي ، محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط ، ط٥ ، تحقيق : مكتب التراث في مؤسسة الرسالة ، إشراف : محمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٩٦ ، ج١٥ ، ص٧.

(٦) للمزيد عن هذا الموضوع ينظر : اسبينداري ، عبد ارحمن عمر ، الطغيان السياسي وسبل تغييره من المنظور القرآني ، د.ت، ص٢٥ وما بعدها.

(٧) ابنَ منظور ، محمد بن مكرم ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٠ ، ج١٥ ، ص٩.

(٨) سورة العلق ، آية : ٦ .

(٩) البستاني ، عبد الله ، البستان معجم لغوي مطول ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٩٢ ، ص٦٦١.

(١٠) سورة الأنفال ، آية:٢ .

(١١) ينظر : سبينداري ، الطغيان ، ص٢٥.

(١٢) الربيع ، محمد محمود ، موسوعة العلوم السياسية ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، الكويت ، ١٩٩٤ ، ج١ ، ص٢٩٤.

(١٣) للمزيد عن توضيح هذه الألفاظ وعلاقاتها بالطغيان ، ينظر : سبينداري ، الطغيان ، ص٤٥ وما بعدها.

(١٤) إمام ، أمام عبد الفتاح ، الطاغية دراسة فلسفية لصور من الإستبداد السياسي ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٩٤ ، العدد ١٨٣ ، ص٥٩ وما بعدها ؛ وهبة ، مراد ويوسف شلاله ويوسف كرم ، المعجم الفلسفي ، ط٢ ، دار الثقافة الجديدة ، د.ت ، ص٢٤٢.

(١٥) المحجوب ، مخلص ، ظاهر الطغيان في الحكم ضاربة في القدم وموصولة تأريخياً بواقعنا المعاصر ، مجلة اقلام ، العدد الخامس ، السنة الأولى ، جويلية ، ٢٠٠٢ ، ص٢ ؛ موقع www.mafhoum.com.

(١٦) شوفالييه ، جان جاك ، تاريخ الفكر السياسي ، ترجمة : محمد عرب صاصيلا ، ط٤ ، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٩٨ ، ص٥٣.

(١٧) إمام ، الطاغية ، ص٥٧ ؛ ربيع ، موسوعة العلوم السياسية ، ج١ ، ص٢٩٤ ؛ المحجوب ، ظاهرة الطغيان ، ص٢.

(١٨) المحجوب ، ظاهرة الطغيان ، ص٢.

(١٩) إمام ، الطاغية ، ص٢٦٣.

(٢٠) للمزيد عن ذلك ينظر : المرجع نفسه ، ص٢٦٤ وما بعدها.

(٢١) إمام ، الطاغية ، ص٢٦٦.



(٢٢) المرجع نفسه ، ص٢٦٨.
(٢٣) المرجع نفسه ، ص٢٦٨.
(٢٤) نقلا عن : الطعان ، الفكر السياسي ، ص٢٤٧.
(٢٥) المرجع نفسه ، ص٢٤٩.
(٢٦) كريمر ، صموئيل نوح ، من ألواح سومر ، ترجمة : طه باقر ، بغداد ، ١٩٥٨ ، ص٨١ ؛ فرانكفورت ، هنري وآخرون ، ماقبل الفلسفة ، ترجمة : جبرا ابراهيم جبرا ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص١٧٤-١٧٦ ؛ ساكز، هاري ، عظمة بابل – موجز حضارة بلاد الرافدين القديمة ، ترجمة : عامر سليمان ، الموصل ، ١٩٧٩ ، ص٥٨.
(٢٧) الطعان ، الفكر السياسي ، ص٢٥٥ ؛ كريمر ، صموئيل نوح ، السومريون ، ص٢٥٧.
(٢٨) باقر ، طه ، ملحمة كلكامش ، دار الوراق ، لندن ، ٢٠٠٦ ، ص١١٤.
(٢٩) كريمر ، السومريون ، ص٤٧٣ ؛ الزيباري ، محمد صالح ، النظام الملكي في العراق القديم دراسة مقارنة مع النظام الملكي المصري ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الموصل ، كلية الآداب ، ١٩٨٩ ، ص٣٩ وما بعدها.
(٣٠) الزيباري ، النظام الملكي ، ص٣٩.
(٣١) للمزيد عن هذا الموضوع ، ينظر : الطعان ، الفكر السياسي ، ص٢٦٢ وما بعدها.
(٣٢) باقر ، ملحمة كلكامش ، ص٨٩-٩٠.
(٣٣) المرجع نفسه ، ص٩٠.
(٣٤) المرجع نفسه ، ص٩٨.
(٣٥) المرجع نفسه ، ص١٠٨.
(٣٦) جيرار ، رينيه ، اكباش الفداء ، ترجمة : منار رشيد أنور ، دار شرقيات للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ص١٩.
(٣٧) المرجع نفسه ، ص٥٠.
(٣٨) الطعان ، الفكر السياسي ، ص٢٨٥ وما بعدها.
(٣٩) فرويد ، سيغموند ، موسى والتوحيد ، ص٦ ، ترجمة : جورج طرابيشي ، دار الطليعة ، بيروت ، ٢٠٠٩ ، ص١٣.
(٤٠) رشيد ، فوزي ، الشرائع العراقية القديمة ، ط٢ ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨٧ ، ص٢٦.
(٤١) المرجع نفسه ، ص١١٣.
(٤٢) اسماعيل ، شعلان كامل ، الحياة اليومية في البلاط الملكي الأشوري خلال العصر الآشوري الحديث (٩١١-٦١٢ق.م) ، اطروحة دكتوراه غير منشورة ، جامعة الموصل ، كلية الآداب ، ص٤٣.
(٤٣) الطعان ، الفكر السياسي ، ص٣٥٥ – ٣٥٦.
(٤٤) المرجع نفسه ، ص٣٤٥.

